بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ المجلس (٠١٦)

"تتمة الباب الرابع -في ذكر الفينيقيين- (د= الحرب البونيقية الثانية. هـ= الحرب البونيقية الثالثة- الباب الخامس "في ذكر البربر على عهد قرطاجنة وجمهورية رومة" ١= علاقة البربر مع القرطجانيين"[١].

د - الحرب البونيقية الثانية (٢١٨ - ٢٠٢)

لما توفي أملقار[٢] بإسبانيا ترك جيشا منظما منقادا له كل الانقياد فورثه ابنه حنبعل في الحكم والجيش، وكان ابن سبع وعشرين سنة.

---

[١] الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: توقفنا عند الحروب البونيقية، نعود ونلخص ما ذكرنا، فنحن الآن في الباب الرابع، وهو في ذكر الفينيقيين، وفي ضمنها جاء ذكر قرطاجنة، وانتهينا عند الحروب، قلنا إن حروب قرطاجنة كانت مع اليونان، والرومان، فمع اليونان تسمى حروب صقلية، ومع الرومان تسمى حروب بونيقية، أما الحروب الصقلية كانت على ثلاثة أدوار، الدور الأول والثاني ونهاية الثالث، أما الحروب البونيقية التي كانت مع الرومان انتهينا عند الحرب الأولى، وتوقفنا عند الثانية.

[٢] أملقار هذا قلنا كان قائدا عظيما عند القرطاجنيين، وأبلى بلاء عظيما، وكان صاحب قوة وإقدام، لكن أصحاب الأموال رأوا أن إبقاء هذا القائد الذي له حرقة على وطنه، لا يسلم شيئا منه ولو على جثته، يعني لو أبقوا عليه ستذهب ثرواتهم، فأبعدوه إلى إسبانيا من باب أنهم يريدون فتحها هذا في الظاهر وإلا فالحقيقة أنهم يخافون على ثرواتهم. فهو ذهب إلى إسبانيا وفتحها وأسس بها دولة ترأسها وسميت عاصمتها بقرطاجنة الحديثة.

حنبعل هذا رجل عظيم اعترف له أعداؤه الرومان بالدهاء الخارق للعادة، وتعجب نابليون الأول[1] من دهائه الحربي[2]، ومجمل القول فيه أنه عالم متبصر في الأمور، ذو عزيمة ثابتة ووطنية نارية، محبوب من جيشه وكلاهما واثق بالآخر[3].

---

[1] هو نابوليون بونابارت، قائد فرنسي أراد أن يحكم العالم، صاحب المعارك، وبالمناسبة نابوليون بونابارت هذا هو صاحب أول فكرة تجميع قومي لليهود وأنهم قوم لهم قومية وشعب له وجود، ولابد أن تكون له فلسطين دولة، هو أول من أوقد هذه الفكرة، أراد من وراء ذلك أن يجمع اليهود، لأن هدفه السامي والأساسي هو التوغل في مصر، لأن مصر دولة منطقتها مهمة جدا، وعظمى، والتمكن منها يفتح له أبوابا كثيرة، ولا شك أن هذا بناء على دراسة تاريخية، وأمثال هؤلاء الرجال في الميزان التاريخي عند الناس، وبحسب ما حصّلوه، وما أقدموا عليه، وما طمحوا إليه يجعلون قائدا من العظماء، يذكرون كثيرا من الناس، ومنهم هذا، وصل إلى مرتبة، وكان مقداما وطموحا، وسرى إلى تحقيق أمور كثيرة، فهؤلاء لابد أن تكون لهم دراسة في التاريخ لتمكين الحصول على مآربه ومقاصده، فهو يعلم أن مصر مهمة جدا، من أسباب وصوله إلى مصر تمكين اليهود من فلسطين، بدعوى أنهم قوم، وأن قومية اليهود موجودة ولكن ولا بد من إحداثها، ولابد من إرجاعهم إلى بلدهم الأصلي، فكان له ذلك.

هذه فكرته الأولى لكن لم ينجح فيها، وكان الأمر للانجليز ولهذا فأعظم مؤيدي اليهود فرنسا، ولا نعجب من علامة الجزائر محمد البشير الإبراهيمي هذا العالم الفذ قال: ولا أزال أعلم، وأعتقد جزما أن الوطن الرئيسي لليهود هو فرنسا! كما في كتابه الآثار للإمام البشير الإبراهيمي الذي جمعه ابنه أحمد طالب الإبراهيمي الوزير الأسبق حفظه الله لا يزال حيا جمع آثار والده وفيه الكثير من كلامه، وهذا مما ينصح به أن يقرأ، يستفاد منه الكثر.

[2] في القرن الثامن عشر وتعجب من دهاء حنبعل هذا الذي كان قبل الميلاد بنحو قرنين، يعني له عليه دراسة، درس أموره التاريخية والحربية، وما كان عنده من الذكاء.

[3] القائد بالجيش، والجيش بالقائد.

كان يحمل حقدا حارا لرومة، وينوي تجديد عز قرطاجنة[1]، فتوسل[2] لإثارة الحرب بينه وبين رومة بأن هجم على مدينة باسبانيا تحت حمايتها[3]، كما أنها هجمت قبل ذلك أثناء الصلح على جزيرتي سردانيا والكورص، واتنزعتهما من قرطاجنة[4].

وبهجوم حنبعل انقضت أيام الصلح[5] التي دامت اثنتين وعشرين سنة استعادت فيها كلتا الدولتين قوتها.

أرسلت رومة إلى قرطاجنة وفدا يطلب منها تكفير تعدي حنبعل واختيار الصلح أو الحرب[6]، فردت اليها قرطاجنة أمر الاختيار[7].

اختارت رومة الحرب، فكان ذلك بردا وسلاما على قلب حنبعل[8]. فأراد أن يحاربها في عقر دارها. فاختار من جنوده خمسين ألفا بين مشاة وفرسان. وقيل مائة ألف، وتوجه إلى إيطاليا وكان يريد أن يموت هو أو تموت رومة[9].

---

[1] كما قلنا هي الدولة الفينيقية، لما نزلت الجانب الشرقي لهذا البلد.

[2] بمعنى توصل.

[3] انتهينا في الحروب البونيقية الأولى إلى إيجاد معاهدة، رد الأسرى من غير فداء، خروج قرطاجنة من الصقلية، التزامها مساندة بيرو، دفع الغرامة الحربية ..الخ، فحنبعل هذا أراد أن يثير الحرب مع رومة، كان في إسبانيا فأغار على منطقة تابعة لها.

[4] يعني رومة فعلت هذا أثناء الصلح فهو أعاد الغرة.

[5] الصلح الذي أبرم انقضى، لأنه قال: تكون مسالمة فإذا ببعض أتباع قرطاجنة يغيرون على بعض البلاد، إذن هذا الصلح قد انقضى.

[6] رومة لما سمعت بهذا أرسلت إلى قرطاجنة، وهذا حنبعل الذي هو وريث أمنقار الذي كان في إسبانيا تابع لقرطاجنة، فرومة قالت لقرطاجنة قد نقضتِ العهد، فإما أن تعودي إلى الصلح أو الحرب.

[7] قالت الخيار لك إن شئتِ بقيت على الصلح، وإن شئت الحرب.

[8] هذا ماكان ينتظره.

[9] يعني أراد القضاء على هذه الدولة، دولة الرومان، يعني دولة معروفة من القدم أنها مستفزة، ومستغلة للناس.

وأكثر فرسانه نوميديون[1]، وهم معروفون بالفروسية المبهتة.

حتى أن فرسان الرومان لم يستطيعوا مقابلتهم. فترجلوا عن خيولهم[2].

وقعت بين الفريقين معارك في ميادين كان النصر فيها لحنبعل، وهلك من الرومان آلاف مؤلفة. وطالت إقامة حنبعل بإيطاليا فقل جنده وخرج عنه كثير من الأمم التي أخضعها أولا لطاعته[3]، وإذ ذاك استنجد قرطاجنة فلم تنجده جريا على عادة أعيانها من حب السلم لترويج التجارة[4]، هنالك أرسل إلى أخيه صدر بعل الذي تركه بإسبانيا فاضطر صدر بعل في طريقه إلى خوض معركة قضت على أجله سنة (٢٠٧)[5] بعد ذلك تحصن حنبعل بجبال كلابر من إيطاليا وعجز الرومان عن مقاومته بها .. فنقلوا الحرب إلى إفريقية بتدبير سبيون[6].

---

[1] الجهة الشرقية.

[2] يعني كان أتباع حنبعل من القرطاجنيين أصحاب فروسية، فلما التقوا مع الرومان وهم على خيولهم، يعني الرومان لم يستطيعوا المقاومة، فاضطروا للقتال لا على خيولهم، بل راجلين ماشين.

[3] يعني كانت الغلبة له لكن لم يعد إلى بلده بل أطال القيام في إيطاليا فقلّ جنده، والذين خضعوا له صاروا يخرجون عنه.

[4] الدولة القرطاجنية صاحبة تجارة تريد ترويج التجارة، والتوسع في تجارتها، ونقل السلع، خاصة عن طريق البحرية، فإثارة الحروب والقلاقل لا تحبها، وخاصة حنبعل هذا قد أرسلته هي أصلا إلى إسبانيا، فإغارته على المدينة التي أغار عليها كما ذكرنا سابقا، وإقامة هذه الحرب ليس لها فيها شيء، فلم تنجده جريا على عادة أعيانها من حب السلم وترويج التجارة.

[5] حنبعل استنجد بأخيه صدر بعل بإسبانيا، فلما جاءه في الطريق خاض معارك توفي أثناءها.

[6] لأن في إفريقيا يوجد قرطاجنة، وروما لها طمع في إفريقيا لاستغلال ثرواتها، ومادام حنبعل هذا تابع لقرطاجنة من قبل، فأرادت أن تنقل الحرب إلى ذلك.

لما رأى سبيون[1] أن ينقل الحرب الى أفريقية- كما فعل من قبله أغاثوقلس[2]- وجد نفسه في حاجة إلى استمالة النوميديين، فذهب إلى أفريقية، وتمكن من عقد محالفة مع صيفاقس ملك مصيصليا ضد قرطاجنة، وبذل صدر بعل ابن جسقون جهوده لابقاء صيفاقس على ولائه لقرطاجنة فلم يفلح أولا، ثم عاد سبيون إلى الأندلس، وبها مصينيسا[3] مع صدر بعل على الرومان فاستماله أيضا، وكان عدو صيفاقس، فوجد صدر بعل بذلك سبيلا إلى ايغار صدر صيفاقس على الرومان، فانتزعه منم وأعاده في صف قرطاجنة، جمع سبيون لفتح إفريقية جيشا يشتمل على ثلاثين ألفا.

وكان مصينيسيا قد وقعت له حروب مع صيفاقس انهزم فيها وصار متشردا بالصحراء. فلما حل سبيون[4] بأفريقية جاءه نجدة له[5]. وجاء صيفاقس منتصرا لصدر بعل، ووقعت بين الفريقين معركة أولى انهزم فيها سبيون مكيدة، وأظهر رغبته في الصلح، وبينما هم في المفاوضة إذ هجم سبيون على صدر بعل ومصينيسا على صيفاقس ليلا وحرقوهم بالنار وعلوهم بالسيوف، فكانت على القرطاجينيين وقيعة شنعاء وذلك سنة (٢٠٣) وخضعت إذ ذاك قرطاجنة لسبيون طالبة منه الصلح، كل ذلك وحنبعل بإيطاليا، ولما بلغه ما حل بدولته عاد إلى وطنه سنة (٢٠٢).

لما بلغ حنبعل قرطاجنة تقوت به القاوب بعد الضعف[6]، ولم يقبل الصلح، وعاد إلى الحرب فوقعت بينه وبين سبيون معركة زامة، مات فيها من الرومان عدد كبير، ولكن خيالة نوميديا كانوا مع سبيون

[1] المؤلف ترجم لسبيون قال (سبيون هذا هو قائد الجيش الروماني المحارب لقرطاجنة بالأندلس. وأبوه يقال له أيضا سبيون، وكان أيضا قائدا، وانتصر عليه حنبعل في طريقه إلى ايطاليا. ويعرف سبيون الابن بسبيون الأفريقي. ولعل هذه النسبة جاءته من قبل إقامته بأفريقية في هذه الحرب).

[2] هو الذي أيضا كان من عائلة فقيرة، وأرسله حبنعل الأول إلى إسبانيا ليقاوم هناك، فلما استتب له الأمر ومات الذي أرسله، رأى أنه قد انفك عن الأيمان التي أعطاه إياها على أنه يصير تحته، فاستقل بالملك.

[3] من رؤساء البربر وسيأتي ذكره، لما يأتي ذكر الباب الخامس في العهد القرطاجني سيذكر المؤلف رؤساء البربر ومنهم ماسينيسا.

[4] هذا تابع للرومان.

[5] يعني التحق به مسينيسا

[6] بينهما توافق، تقووا به بعد الضعف.

فكان الغلب له[1]. وعاد حنبعل الى قرطاجنة آيسا من ربح الحرب راضيا بالصلح، وكانت معركة زامة هذه خاتمة الحرب البونيقية الثانية، عقد المتحاربان بعدها هدنة الى ثلاثة أشهر، ثم اتفقوا سنة (٢٠١) على مواد الصلح الآتية:

١ – سراح الأسرى الرومان من غير فداء.

٢ – تسليم قرطاجنة في جميع أفيالها للرومان.

٣ – تسليمها لهم جميع سفنها إلا عشرا.

٤ – يبقى لها ما تحت يدها من التراب ما عدا الجزر.

٥ – تدفع لهم غرامة مالية، قدرها ابن خلدون بثلاثة آلاف قنطار من الفضة وقدرها غيره من مؤرخي الافرنج بأربعة وخمسين مليونا فرنكا، وهي منجَمَة: قال مرسي على عشر سنوات، وقال ماليت على خمسين سنة.

٦ – تعترف بسلطنة مصينيسا على مصيليا، وقاعدته قرطة، وتتعهد بأن لا تحاربه[2].

٧ – لا تجند جندا إلا برخصة من رومة[3].

٨ – لتنفيذ هذه المواد تأخذ رومة مائة من أبناء قرطاجنة رهنا.

تم الصلح على هذا الوجه، وأخذ سبيون خمسمائة سفينة أحرقها بميناء قرطاجنة، ورد عليه أربعة آلاف أسير. وعاد إلى رومة ظافرا منصورا، أما حنبعل فانه عاد إلى قرطاجنة وهو يرجو أن يأتي يوم تقبل فيه رومة شروطا كالتي قبلتها اليوم قرطاجنة[4]، وظهرت طلائع الفوضى بقرطاجنة. واتهم حنبعل بالتقصير في فتح رومة فحاكم عليه بالقتل، ولكنه استمال الجند وقلب النظام وأصبح هو الآمر الناهي[5]. وذلك

---

[1] النوميديون أصحاب خيالة كما ذكرنا.

[2] يعني قرطاجنة لا تحارب مسينيسا وهو تابع للبربر.

[3] انتبهوا لهذه البنود وأسباب الصلح، التاريخ يكرر نفسه.

[4] يعني يتمنى متى يتقوى فهو الذي يفرض الشروط على رومة.

[5] انقلبت الكفة لأنه كان صاحب قيادة في الجيش، وبينه وبين جيشه توافق، فحكم عليه بالقتل لأنه لم ينجح أمام رومة لكن استبد بين نفسه الجند فقلب الأمر وصار هو الآمر الناهي.

سنة (١٩٥) وأخذ في رتق ما فتقته الحرب[١]، فدرب الجنود ونشط الفلاحة، ولم يرق ذلك للرومان فبعثوا إليه بالكف عن تلك النهضة التي تعيد لقرطاجنة شبابها[٢]، وتخشى منها رومة خرابها، ولم يستمع إليهم حنبعل على كثرة إلحاحهم. ولا أعياهم إعراضه عن موافقتهم عزموا على اغتياله بمساعدة أرباب الأموال[٣] التي استحوذت على قلوب أصحابها فلم تبق بها منفذا لحب الوطن[٤]، وإذ ذاك أيس حنبعل من خدمة أمته بقرطاجنة[٥]، ففر إلى الشام[٦] ونزل على ملك السريان " أنطيوكيس " وأراد أن يشغل رومة ويخدم وطنه من الخارج، فطلب من ذلك الملك المدد لمحاربة رومة في المشرق فأمده. وأخيرا أيس من أن تكون لهذه المحاولات ثمرة[٧]، فسم نفسه[٨] سنة (١٨٣)[٩].

---

[١] يعني لم وشمل وجبر ما سبق أن تفرّق.

[٢] هكذا يفعل الدول التي تسمى القوى الكبرى.

[٣] دائما الخونة موجودون، تضغط على الزر يطلعون.

[٤] الجبناء والخونة وأهل الغدر والخيانة كثر، إذن حبنعل صاحب وطنية، أراد أن يقوم ببدنه من جديد، درّب الجند ونشّط أسباب انتعاش بدنه، هذا الأمر لا يكون على غفلة من الرومان، كما هو الحال الآن من الدول التي هي في ميزان الدول الكبرى ضعيفة، في ميزان الأمريكان، وفرنسا، وبريطانيا، والروس، وما يتبعه، المعسكر الشرقي والحلف الأطلسي، فعينهم مسلطة على الدول المستضعفة، ويتابعون أحوالها، ويغلطون الناس "مؤتمر عالمي لتنمية اقتصاد دول العالم الثالث"، "مؤتمر عالمي لحماية الأقليات"...الخ وهو فقط لتسليط العيون على هذه الدول، حتى تبقا كبارا، فمتى وجد فيهم من يريد أن ينهض دبروا له مكيدة، وشنقوه كما شنقوا غير واحد.

[٥] رأى أن الأمور كفتها ليست لهم. لم يجد في بلده من يعينه ومن يقف معه وقفة رجل، وصاحب حرارة وطنية كما يقال.

[٦] رأى أنه يبذل ويعطي ولكن لا يوجد من يستجيب معه، بل قد انتبه إلى أنه يوجد من يتآمر مع المخالف لاغتياله، فنجا بنفسه وفر إلى الشام.

[٧] علم أنه لن توجد اليد التي تكافح معه.

[٨] تناول السم.

[٩] وهذه القلوب التي هي خاوية من الإيمان، والتقوى، ينتهي بها المقام إلى مثل هذا الأمر الشنيع، وكما قال الشيخ مبارك الميلي في عبارة جميلة مرت معنا قريبا قال (**ولا أعجب من حال من يفر من الموت الشريف وهو مظنون ويقتل نفسه بعدما جر لدولته عار الانهزام**) يعني هذا أعجب، قوة وشرف ومحاربة يفر من موت شريف مظنون قد يكون وقد لا يكون إلى مثل هذا فيقتل نفسه.

وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم والقائد الكبير الذي لم يهزمه غير الخائنين من قومه عبدة المنفعة الشخصية، فمضى ولسان حاله ينشد:

أنا لولا أن لي من أمتي *** خاذلا ما بت أشكو النوبا[1]

[1] فما أكثر هؤلاء الجنباء أهل الخذلان والبلاء، والتاريخ يعيد نفسه.

هـ- الحرب البونيقية الثالثة (١٤٩ - ١٤٦).

خرجت قرطاجنة من الحرب الثانية على تلك الصفة القاضية عليها بالموت، ولكنها أمة تجارية نشيطة فتحسنت حالها وانتعشت[١]، وكان مصينيسا يقلقها بغاراته على حدودها[٢]، وقام بها ثلاثة أحزاب:

١= حزب مالي غرضه السلم ومداراة رومة[٣].

٢= وحزب وطني غرضه تأييد سيادة قرطاجنة بالجيش والحرب.

٣= وحزب بربري غرضه الاحتماء من رومة بالخضوع لمصينيسا، ولو قدر لهذا الحزب الأخير النجاح ما رأى الجزائريون وجوه الرومان وفخفختهم[٤].

---

[١] قلنا قرطاجنة أصلها من الدولة الفينيقية، لما نزلوا على الضفاف في الجهة الشرقية سموا بالبونيقيين ابتنوا بتونس قرطاجنة مدينة، وجعلوا فيها مرسى لنقطة وصل وعبور لتجاراتهم، ومن ثم صارت هذه الإمارة والعهد القرطاجني، فهم أصحاب تجارة.

[٢] مع أنه من البربر، وقرطاجنة كانت علاقتها مع البربر طيبة كما سيأتي، ولكن كانت البربر من يكون أحيانا مناصرا لقرطاجنة، وأحيانا نصيرا عليها.

[٣] المهم عنده أن يبقى ماله وتجارته.

[٤] لأن الرومان كما سيأتينا بعد سقوط قرطاجنة تدخل على هذا البلد، وتشبعه الويلات، ويعيش تحت ظل سيطرتها لنحو ثمانية قرون إلى أن جاء الإسلام، وجاء العرب، وبعثوا في هذا البلد الروح.

لم يكف مصينيسا عن إزعاج قرطاجنة، فرفعت عقيرتها مرارا بالشكوى منه إلى رومة التي لم يخف عليها تعدي مصينيمسا[1]، وأخيرا خشيت رومة أن يستولي مصينيسا[2] على قرطاجنة، ويقطع آمالها في امتلاك أفريقية، فوجهت إلى أفريقية ثلاثة من الخبراء[3] للبحث في قضية قرطاجنة مع مصينيسا وإنصافها منه[4]، فلما بلغوها ورأوا حسن حال قرطاجنة[5] عدلوا[6] عن إنصافها خشية أن تعود إلى قوتها[7] وتحتفظ بسيادتها على وطن همهم في امتلاكه، حتى أن أحد الخبراء المدعو قاطون CATON لما عاد إلى رومة حمل معه تينات طرية من شجرتها ودخل بها مجلس الشيوخ[8] قائلا: "إن الأرض التي تنبت هذه

---

[1] رومة أبرمت صلحا مع قرطاجنة، وكانت في موضع قوة، ففرضت عليها أن .. وأن .. وأن، وماسينيسا يغير عليها، فإذا حاربتها قرطاجنة تقول رومة أنتم نقضتم العهد، إذن عليكم غرامة أخرى، ونحرق سفنكم، ونأخذ آلات الحرب من عندكم، وروما تعلم وتعرف ما يفعله ماسينيسا من الإغارات، مثل ما هو الآن، أكملوا سوريا وسيارات الأمم المتحدة تسير وتبحث عن القتلى أين هم؟ ونحن من هنا رأيناهم وهم في وسطهم يسيرون لم يروهم، لم يجدوا أن هناك قتلى! لم؟ لأنه فيه مصالح ومتى ترجح المصالح؟ يجدون ملايين القتلى.

فرومة لم يخف عليها تعدي ماسينيسا.

[2] انقلب الميزان، الآن قرطاجنة تقلقها، إذن دعها تشغلها بماسينيسا، الآن بدأ يستقوى ماسينيسا، ويقلق رومة إذن يلزم أن تحوم حوله.

[3] الدول الكبرى هذه، رومة عرقها استغلالي.

[4] يعني يغير عليها، يضرها، يفعل بها كذا وكذا.

[5] رأوا البهاء الذي فيها.

[6] أي مالوا، فعدل في اللغة من الأضداد، اللغة العربية هذه أفضل اللغات إلى يوم الدين، عجيبة هذه اللغة، ومن عجائبها أن الكلمة الواحدة تدل على المعنى وضده، عدل بمعنى انحرف، وعدل بمعنى أقسط في القضية يعني كان منصفا، قال ﷻ {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}المائدة٨، {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ}الأنعام١٥٢ وقال ﷻ {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ}الأنعام١ يعني يساوون غير الله مع الله، والقراءة الثانية يعدلون أي ينحرفون، يميلون، وكلا المعنيين تؤيده آيات أخرى.

[7] لما جاء الخبراء إلى قرطاجنة رأوا أنها دولة تملك ثروات ولها قوة، قد تقوم، وتنتفض، وتصير قوة قوية لا تدانيها دول أخرى.

[8] في رومة.

الثمرة ليس بينها وبين رومة إلا مسير ثلاثة أيام"، ومن كلامه أيضا: " إن رأيي أن نهدم قرطاجنة"[١] ولم يزل يكرر هذا المعنى في خطبه، وبعد قليل أصبحت رومة تلفق أسبابا واهية[٢] لتبرير حرب قرطاجنة[٣].

أدركت قرطاجنة جور أولئك الخبراء وعرفت أنه لا ينصفها غير قوتها[٤]، فكانت للحزب الوطني فرصة لم يضيعها[٥]، إذ قام من رجاله جسقون ونظم جيشا جعله تحت إمارة أريو برزان حفيد صيفاقس عدو مصينيسا، وأخرج حزب مصينيسا من قرطاجنة سنة (١٥٢) فاحتج مصينيسا على ذلك أمام قرطاجنة ورومة، وأخيرا هجم على الحدود فخرج إليه صدر بعل في جيش كثير، وانتهت المعركة بفوز مصينيسا، وذلك سنة (١٥٠).

---

[١] الربيع العربي! -والفاهم يفهم!!- مساكين المسلمون، يبيّت لهم ليلا ونهارا وهم لا يعرفون، يسمونه ربيعا عربيا، أهلكوا بلدانهم وأحرقوها، بالرغم ما كان من الظلم ونحوه، الأمر واضح، لكن العاقل يبني لا يهدم، ونحن لا نحب أن نتكلم في السياسة، لكن لو أنكم تلاحظون، أيام اندلاع هذه الأمور التي تسمى الربيع العربي، توازت مع الاستوطان اليهودي في فلسطين، والأزمة الاقتصادية العالمية، أشغلوا هذه الدول، تغض الطرف عن فلسطين واليهود يفعلون ما يشاؤون، ويحتاجون بعد ذلك إلى السلاح فتحتاج إلى تمويل الدول المنتجة للسلاح، وتسترد قوتها في الاقتصاد .الخ

[٢] مثل ما يقال اليوم: لعل عندهم النووي، لعل عندهم الهيدروجيني، لعل عندهم أسلحة الدمار الشامل ..الخ

[٣] كما فعلوا مع الجزائر بدءً من ١٨١٥م، ثم سكتوا إلى ١٨٢٧م، ثم سكتوا إلى ١٨٣٠م وجدوا الفرصة، هي أسباب ملفقة ليست من فرنسا فقط، من فرنسا ودول أخرى، أمريكا كانت كي تعبر من بحر هنا تدفع غرامة، على كلٍّ فلا بد إذن لهذه الدول القوية من هدمها. فإذا أقلقك أحدهم وجعلك كلما تمرّ تدفع غرامة، فإذا وجدت فرصة كي تهدمه تهدمه حتى لا يقوم، وتبقى مسيطرا عليه كي لا يقوم، وكلما رأيته سيقوم تعوقه ..الخ

[٤] إذن لا بد أن تتجهز، هذه الأمور تذكروها جيدا حتى نقارنها مع الفتح الإسلامي وكيف هي فتوحات الإسلام، وكيف هي دعوة الإسلام ودعوة المسلمين، ونقارن بين الأمرين، شتان! لأن الإسلام جاء لنشر الدعوة لا للسيطرة على البلاد أبدا، وإنما لنشر دين الإسلام، فإذا أتينا بلدا وقبلوا دعوة الإسلام، وأسلم القائم عليهم أبقي على ما هو عليه.

[٥] قلنا كانت ثلاثة أحزاب، حزب مالي، وحزب حربي، وحزب بربري يحتاج لحماية.

بلغ خبر هذه الحرب إلى رومة فاعتمدتها سببا لحرب قرطاجنة بدعوى أنها نقضت الفصل السادس من مواد الصلح السابق، وشرعت في تجهيز جيوشها للدخول في الحرب البونيقية الثالثة، وما أجدرها أن تسمى حرب التين[١]!

في سنة (١٤٩) وجهت رومة جيشا إلى أفريقية، ولما نزل بصقلية جاءته رسل قرطاجنة معترفين بالجناية على الصلح مع أنهم كانوا مدافعين لا هاجمين[٢]، وقدم أولئك الرسل لضباط الجيش (٣٠٠) من أعيان قومهم رهنا، ولكن الجيش سار لطيته[٣] وكان عدده ثمانين ألفا، ولما نزل بتراب قرطاجنة طلب منها- تكفيرا عن جناية نقض الصلح! - تسليم جميع المواد الحربية وآلات الصناعة، فلبت الطلب! وكان مما استلمه الجيش الروماني مائتا ألف درع، وثلاثة آلاف مقلاع، عدا المراكب وغيرها.

وبعد استلام ما طلبه الجيش الروماني أولا طلب ثانيا منها أن تتخلى له عن خمسة عشر ميلا من ترابها[٤]، فطلبت تأجيل الجواب عن ذلك إلى شهر، ووافقها الجيش على هذا الطلب لاعتقاده أنها عاجزة عن أي مقاومة.

أثار هذا السلوك الممقوت والخداع الخبيث حمية القرطاجنيين، فهاجموا وثاروا في وجوه الذين مكنوا الرومان من قوتهم، وجمعوا عشرين ألف جندي تحت قيادة صدر بعل، وتهيأ السكان أجمعون للدفاع عن المدينة، وكان عددهم سبعمائة ألف، وخرج صدر بعل بجيشه من المدينة ليتمكن من تموينها، واستعد الباقون للحصار تحت رئاسة حفيد مصينيسا المسمي صدر بعل، ونهضوا أثناء ذلك الشهر

---

[١] سماها الشيخ مبارك الميلي بذلك، قال لك هذه جديرة بأن تسمى حرب التين، لأن خبراء رومة لما جاؤوا ورأوا هذه الثروة، مما أغراهم التين، فقالوا هذه الأرض أنتم تضيعونها، ثلاثة أيام فقط تصلون إليها، وتستفيدون من ثمراتها.

[٢] يعني قرطاجنة دافعت، وما هاجمت، ومع ذلك لمّا سمعوا أن رومة تجهّز وقد قدمت ونزلت صقلية، ذهبوا إليهم وقالوا: نعترف أننا أخطأنا.

[٣] يعني لم يلتفت لهم.

[٤] هذا هو الاستغلال، هذا هو الجنس الرومي والروماني لا يزال إلى الآن، بخلاف الجنس السامي والذي منه العرب فليس هذا طريق محاربيهم، وسيأتي.

للعمل بنشاط غريب حتى أنهم هدموا الديار ليأخذوا أخشابها ويصنعوا منها السفن وآلاتها وحلقت النساء شعورهن ليفتل منها الحبال.

وعندما تم الأمد[1] جاء الجيش الروماني ليدخل المدينة فوجدها على غاية الحصانة، وتحرج موقفه، ثم فشا فيه المرض والعصيان، وكان القرطاجنيون بخلاف ذلك تزداد حرارتهم الوطنية بطول الحصار، ولم يجد الرومان مساعدة من مصينيسا الذي لزم الحياد رجاء أن يستفيد من ضعف الدولتين كلتيهما[2].

مكث القرطاجنيون في انحصار عامين، واشتد عليهم تحت رئاسة سبيون الأميلي إذ حفر خندقا أحاط بالمدينة، وأقام سدا بينها وبين المرسى، وطارد الجيش القرطاجني المقيم خارج المدينة، وبذلك انقطعت عن المحصورين مادة التموين، وذلك سنه (١٤٧)، وحاول المحصورون النفوذ إلى المرسى باتخاذ نفق تحت الجبل، فشعر بهم المحاصرون وردوهم إلى الحصار فاستمروا فيه متزودين بالصبر.

لما حكم سبيون حصار قرطاجنة وقطع عنها المؤنة برا وبحرا عزم على فتحها، فقصد مكانا ليدخل منه على غرة من أهلها، ففطن به صدر بعل حفيد مصينيسا وصده بايقاد النيران في وجهه، وأخيرا دخل سبيون المدينة من ناحية المرسى، فشد عليه السكان شدة عنيفة، وأرسلوا عليه كل ما لديهم من مهلكات ومحرقات، ولكنه صبر لها وفتك بمن ساقه القدر اليه من شيوخ ونساء وصبية وأحرق كل ما مر به، ودامت الحال على شدتها ستة أيام بلياليها، والتجأ المحصورون إلى هضبة برسة، وهم مع ذلك لا يسلمون قدما إلا بحقها، وكثرت الأموات حتى صاروا يرمونها من طريقهم بالمذاري[3].

وكان المحصورون بجبل برسة[4] ثلاثين ألفا، فلما أيسوا من النجاة ونفذ ما لديهم من وسائل الدفاع ومعدات الحصار أسلموا أنفسهم- ومعهم صدر بعل- لسبيون على أن يحفظ لهم أرواحهم، وكانت زوج

---

[1] انتهى الشهر.

[2] دائما إذا رأيت الخصومة بين اثنين، يوجد ثالث ينتظر متى يضعف أحدهما كي يأخذها فريسة.

[3] آلات خشم تلقي الأموات.

[4] قال هنا في التعليق (جبل برسة هضبة بمدينة قرطاجنة. شاد بها الفرنسيون اليوم كنيسة ومتحفا وضريحا للقديس لويس التاسع ملك فرنسا الذي هلك في حربه ضد المستنصر بالله الحفصي بالوباء سنة ٦٦٩هـ- ١٢٧٠م.)

صدر بعل أقوى منه جأشا فربأت[1] بنفسها عن أن تحتمل منة سبيون، فأوقدت النار بمعبدهم وألقت نفسها فيها، وفعل فعلها ألف قرطاجني. وذلك سنة (١٤٦).

وانتهت الحروب البونيقية بفتح قرطاجنة التي خلد البونيقيون بدفاعهم عنها لأنفسهم كل الفخر والشرف وللرومان الغادرين كل خزي وعار، وانه لفتح فتح على الجزائريين كل النوائب والمصائب وسد عليهم طريق الإحسان السامي فلم يروه إلا بعد ثمانية قرون عندما جاءهم العرب إخوان الفينيقيين يحملون لهم دينا فطريا وأحكاما عادلة وحضارة طاهرة.

عندما تم فتح قرطاجنة احتفلت رومة بآلهتها وقربت لها القرابين، ثم وجهت عشرة من أعيانها لينظروا مع سبيون في مصير قرطاجنة، فحملتهم الكراهية والبغضاء لمؤسسيها رجال العمران على اختيار هدمها وتخريبها ففعلوا وبئس ما صنعوا[2]، ولعنوا مكانها. وأخذوا من تراب حكومة قرطاجنة قطعة ضيقة أضافوها الى مستعمراتهم وأطلقوا عليها اسم " مملكة الرومان في أفريقية " وجعلوا لها واليا مقره عوتيقة[3].

---

[1] اربأ بنفسك أي اهتم وتعال، كما قال صاحب اللامية:

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له * فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل**

يعني أنه أنت لمسؤولية عظيمة، لا تضيع وقتك، لا تضيع نفسك مع أهل البطالة والكسل.

[2] يعني ما شيدته قرطاجنة من حضارة، ماذا فعل الرومان أهل الخراب، خربوه.

[3] وبهذا يكون انتهى الباب الرابع، وهو عهد القرطاجنيين، وهم تبع للفينيقيين كما سبق أن مرّ معنا.

الباب الرابع (في ذكر البربر على عهد قرطاجنة وجمهورية رومة[1]).

١ - علاقات البربر مع القرطاجنيين[2].

ليس لقرطاجنة مطامع استعمارية- بالمعنى العصري[3]- في بربر الجزائر، فلم تكن تخدعهم بالوعود الكاذبة أو تمنيهم الأماني الباطلة، فتتظاهر- وهي تسر حسوا في ارتغاء[4]- بأنها جاءت لخيرهم، وأنها تحكمهم ريثما يصيرون قادرين على إدارة شؤونهم، رشداء في تصرفهم، ثم تقلع عنهم، وتنفض يدها من التحكم عليهم متى بلغوا تلك الغاية.

وقد عاب على قرطاجنة هذا الخلق السامي ستيفان أغسال ونقل كلامه بيروني وهاك ترجمته[5]: رومة ملكت أوطانا شاسعة ومع ذلك عرفت كيف تحفظ سيادتها: فالمكان الذي تنتصر فيه تحصنه بالجنود،

---

[1] أي ما الذي حصل لها؟

[2] مرت معنا عموما، أول ما جاء الفينيقيون إلى هذه الأراضي.

[3] يعني أن تستبد، وتأخذ أراضي دول هي ليست دولة لها، وتتسلط عليه.

[4] هذا مثل من أمثال العرب، يقولون (**تسرّ حسوا في ارتغاء**) يعني يظهر أنه يريد أخذ الرغوة، لكنه يحسو اللبن، هذا هو المقصود، يتظاهر أنه يأخذ الرغوة التي ليس لها أهمية، لكنه يحسو اللبن، هذا المثل يضرب لمن يظهر أمرا ويعمل خلافه، هذه أمثال العرب سرت عندهم، كيف يكون ورودها، تقع حادثة وبعد ذلك تضرب مثلا لكل من وقع في مثلها، فكل من يظهر أمرا ويعمل خلافه، يقال له (**يسر حسوا في ارتغاء**) لأنه يظهر أنه يأخذ الرغوة لكنه يحسو اللبن، فيضرب مثلا لمن يريك أنه يعينك وإنما هو يجر المنفعة لنفسه، وكذلك لمن يريد أمرا ويظهر غيره، لهذا قيل للشعبي (**رجل قبّل أمّ امرأته**) فقال (**يسر حسوا في ارتغاء؟ قد حرمت عليه امرأته**) يعني يظهر أمرا ويخفي غيره، يعني ما يجوز أن تجمع بين المرأة وأمها، أو المرأة وابنتها على شروط معروفة، وإن كان الفقهاء يختلفون في هل مجرد القبلة تمنع أو لا؟ هذا من الفروع الفقهية المختلف فيها.

المقصود يقول أن القرطاجنيون ليسوا ممن يظهروا الإعانة وهو في الحقيقة ينفع نفسه.

[5] المؤلف يذكر في مقدمته أنه يشكر كل من أعانه على الترجمة، فيه نصوص تاريخية بلغة أجنبية غير عربية، فأعانوه على ترجمتها، ومنها هذا.

وتمني[1] المحكومين بأنها تدعهم وشأنهم متى رشدوا، وقرطاجنة بعكس ذلك: متى ملكت ناحية لم تحصن مركزها فيها، ولم تعد[2] أهلها بالإقلاع عنهم يوما ما.

إلى أن قال: فلو شاءت قرطاجنة ان تكون من إفريقية دولة ثابتة لسهل الأمر عليها، ولكنها فرطت في الاستثمار والاستغلال[3].

وإن عيب على قرطاجنة تفريطها في استغلال البربر فإنما يعيب عليها ذلك أهل المطامع الاستعمارية، أما من لم تدنس عقولهم تلك المطامع فإنهم لا يرون عيبا على قرطاجنة إن لم تكن ذات خداع سياسي[4]، بل يعترفوق بفضل أعمالها العمرانية وما أحسنت به إلى بربر الجزائر من جلب البضائع لوطنهم وتعليمهم الحرف والصنائع.

وقد كانت تستميل الرؤساء والأمراء بالأموال وتتقرب إليهم بالمصاهرة، لا لأن تخدعهم في استقلالهم بل ليكفوا عنها هجومات قومهم ورعاياهم أو تستعين بهم في حروبها.

أملقار برقة أعظم قواد قرطاجنة وعد نارفاس من رؤساء البربر بابنته لإعانته له على إخماد ثورة المرتزقة، وحنبعل الشهير كانت له ابنة أخ تزوجت من اصالساس بن نارفاس، وصفر نيسب الشهيرة بنت صدر بعل كانت تحت صيفاقس، ومصينيسا كانت له بنت تزوجت بأحد سراة قرطاجنة وكان منها صدر بعل حامل راية الدفاع عن المحصورين بقرطاجنة.

وكان لقرطاجنة منذ أواخر القرن الخامس (ق. م) جنود مرتزقة من نوميديا وموريطانيا، والنوميديون هم الذين أعانوا حنبعل بأوربا، وإليهم يرجع الفضل في انتصاراته الكثيرة الباهرة.

---

[1] تخدع.

[2] من الوعد.

[3] لأن رومة دولة مستغلة.

[4] يأتي بوجه منير وقلب شيطان، كما جاء عن النبي ﷺ (قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس) [أخرجه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧)].

وكانت بين قرطاجنة وبعض أمراء البربر بالوطن الجزائري معاهدات تقضي بإعانة أولئك الأمراء لقرطاجنة أيام الحرب.

فانت ترى أن بين قرطاجنة وبربر الجزائر روابط بالمصاهرة والمعاهدة، واختلاط في الجندية[١].

[١] بخلاف ما عليه رومة صاحبة الاستغلال.